الكرامة
كرامة الوطن من كرامة المواطن

جناب المندوب السامى!

د. رءوف عباس

الثلاثاء، 13 مارس 2007

كان ياما كان.. فى سالف العصر والأوان.. عهد كانت فيه مصر بين براثن الإحتلال البريطانى، بدأ بهزيمة الثورة المصرية التى نسبت إلى أحمد عرابى حتى تبدو وكأنها كانت نزوة فرد وليست تعبيرا عن حركة أمة قادها إئتلاف من المدنيين والعسكريين لتخليص البلاد من الحكم المطلق الذى جعل مصر مغنما للأجانب، سميت بالثورة العرابية لتبدو نشازا فى لحن تاريخ الوطن، وليتحمل البطل أحمد عرابى –وحده- مسئولية الإحتلال، وماترتب عليه من تبعات.

من بين تلك التبعات تحول ممثل بريطانيا فى مصر إلى حاكم فعلى للبلاد يضع القواعد والنظم، ويسن القوانين والتشريعات ويتدخل فى الإدارة التنفيذية بمختلف مستوياتها من عمدة القرية إلى مدير المديرية إلى الوزير. كانت مصر –عندئذ- بمثابة "تفتيش زراعى" ملكا للتاج البريطانى "وإن ظلت السيادة الإسمية للسلطان العثمانى" يديره ممثل بريطانيا فى مصر الذى عرف قبل إعلان الحماية البريطانية عام 1914 باسم "المعتمد البريطانى" ثم أصبح يعرف بعدها وحتى إبرام معاهدة 1936 باسم "المندوب السامى". كان "الممعتمد البريطانى" أو "المندوب السامى". وكيل صاحب "التفتيش" فى إدارته، فهو "المفتش العام" الذى يراقب عمل "الخولية" "جمع خولى" من خلال تنقله فى مختلف أرجاء التفتيش فى جولات تفتيشية يجوس خلالها الديار حيث يستقبل إستقبال الحكام، يتلقى التقارير والشكاوى، ويصدر التعليمات.

ومن يقرأ فى تاريخ عهد الإحتلال البريطانى يقف على ماكان يفعله اللورد كرومر فى جولاته فى طول البلاد وعرضها، وكيف كان يستقبله الأعيان هنا وهناك بالحفارة والترحيب، وكيف كان رجال الإدارة يقفون بين يديه خاشعين، ينتظرون توجيهات "جنابه" حتى يسرعوا إلى تلبيتها. وعندما شيد كرومر المقر الرسمى لممثل بريطانيا فى قصر الدوبارة "السفارة البريطانية الآن"، جعله ممتدا إلى ضفة النيل حيث الرصيف الذى ترابط فيه "الدهبية" التى يستخدمها "جنابه" فى جولاته التفقدية، وهو تقليد حافظ عليه خلفاؤه من جورست حتى ماكما هون وكان قطع الصلة بين قصر الدوبارة وضفة النيل عند شق طريق كورنيش النيل فى بداية عهد ثورة يوليو 1952، وحصر السفارة وراء سورها الحالى بعيداً عن ضفة النيل إنجازا له دلالته السياسية العميقة عند الجيل الذى عاش أيام النضال من أجل تحقيق الإستقلال الوطنى، وضحى من أجل هذه الغاية النبيلة.

ولم تكن جولات جناب المعتمد البريطانى أو المندوب السامى رمزية فحسب، هدفها تذكير المصريين بالدور الذى يلعبه الإحتلال فى بلادهم، بل كان هدفها -أيضا- إكتشاف العناصر التى يمكن إستخدامها لخدمة مصالح بريطانيا فى مصر، وتلك التى تمثل خطرا على الوجود البريطانى. فى تلك الجولات اكتشف كرومر – مثلا - أهمية الدور الذى تلعبه الطرق الصوفية فى الريف المصرى، وذلك الولاء الأعمى الذى يتمتع به شيخ الطريقة من جانب مريديه، فقام كرومر بتأسيس مجلس أعلى للطرق الصوفية يضم جميع شيوخ الطرق، يختارون لرئاسته واحدا منهم يحمل لقب "شيخ مشايخ الطرق الصوفية" وفتح "جنابه" أبواب مكتبه لأولئك المشايخ الذين أصبحوا من "محاسيب جنابه"، تماما كما كان هناك قائمة من المحاسيب تضم بعض الأعيان، وكبار الموظفين، وكتاب الصحف ممن وصفهم "جنابه" فى تقاريره السنوية بـ"المعتدلين" و"العقلاء " تمييزا لهم عن العناصر الوطنية التى ناهضت الإحتلال وسياسته، وإنتقدت جولات "جنابه" فى أرجاء البلاد، ولم يكلوا يوما من المطالبة بالجلاء، فقد وصفهم فى تقاريره "بالمتطرفين" و"المتعصبين" و"الجهلاء".

ظلت الجولات التفقدية لجناب المندوب السامى روتينية الطابع حتى نهاية الحرب العالمية الثانية على أقل تقدير وانتهت تماما عندما تحقق الاستقلال الوطنى التام عشية قيام ثورة يوليو 1952، فلم يعد أى سفير أجنبى يستطيع لعب دور مدير التفتيش أو ناظر العزبة يتحرك فى البلاد متى شاء ويربى الزبائن والعملاء، لسبب بسيط هو أن مصر لم تعد ملكا لأحد، ولأن السلطة كانت وطنية خالصة لاتفرط فى الاستقلال الوطنى قيد أنملة. ولم يكن حديث جمال عبد الناصر الذى أشار فيه – غير مرة - أن مصر تحكم من القاهرة وليس من لندن أو واشطن أو موسكو أو غيرها من العواصم الكبرى، لم يكن ذلك الحديث لغوا أو من قبيل الدعاية الفارغة، بل كان حقيقة لامراء فيها، ماثلة للعيان.

ولكن.. قدر لنا أن نعيش لنشهد عهدا أصبح الاستقلال الوطنى فيه فى عداد الذكريات، إستبيحت فيه الحرمات الوطنية، عدنا فيه إلى تتبع أخبار "جناب المندوب السامى" الأمريكى – هذه المرة - الذى يجوس خلال الديار من أقصاها إلى أقصاها فى جولات تفقدية بدعوى متابعة المشروعات التى تتلقى معونة أمريكية، وهو فى تلك الجولات يستقبل بالحفاوة

والتكريم، من كبار الموظفين والأعيان، وخاصة أنه يتفوق على أسلافه من أصحاب الجناب البريطانيين فى معرفته للغة العربية، وقدرته على التواصل بها مع كل من يلتقى بهم وإقباله على تناول أصناف الطعام المصرى على موائد مستضيفيه وما قيل عن تذوقه "للنكتة" المصرية حتى أنه يستلقى على قفاه من فرط الضحك على ما يستمع إليه منها.

ولعل "جناب المندوب السامى الأمريكى " إستوعب تماماً دروس تجربة سلفه الأول كرومر، من حيث الإهتمام بالطرق الصوفية، والجلوس إلى مشايخ الطرق، والتودد إليهم، ومشاركتم الطعام فى أناجر الفتة واللحم، ولا أظن أنه فى حاجة على إلى مشاركتهم حلقات الذكر، فكل ما يهمه "تربية" هذا النوع من "الزبائن" الذين يستطيع من خلالهم تمرير ما شاء من الرسائل إلى مريديهم الذين يتطلعون إلى نفحات الرضا والقبول.

وما يفلعه فرانسيس ريتشاردونى "المندوب السامى الحالى" ليس بدعا، بل هو متابعة لنهج سلكه أسلافه من سفراء الولايات المتحدة فى مصر منذ رشح السادات نفسه ليكون رجل أمريكا فى المنطقة، وسمح لهيئة بحثية أمريكية وثيقة الصلفة بالمخابرات المركزية بجمع معلومات عن الريف المصرى بحجة دراسة المشروعات المقترحة لتنمية الريف، راحت خلالها الفرق البحثية الأمريكية " التى جندت المئات من الشباب المصريين " تجمع أدق المعلومات عن أربعة آلاف قرية مصرية، منع خلالها الأمن القومى المصرى من التدخل، ولم يستطيع وضع قواعد لإجراء مثل هذه البحوث إلا لسنوات معدودة فى أوئل عهد حسنى مبارك، ثم عاد أسلوب إطلاق الحبل على الغارب لكل من هب ودب من الأمريكان دون إعتبار لما كان يعرف فى سابق العصر والأون بالأمن القومى المصرى، وما قيمة الاهتمام بالأمن القومى المصرى بعدما استبيح الأمن القومى العربى ؟!

ومن اللافت للنظر الطريقة التى تغطى بها الصحف جولات "جناب المندوب السامى" فلا أذكر أنتى قرأت عبارة إحتجاج واحدة على ذلك التفريط البين فى السيادة الوطنية، فيما عدا صياغة إحدى الصحف لخبر زيارة جنابه إلى الصعيد قبل أسبوعين بطريقة تجمع بين الخبر والتساؤلات الإستنكارية حول مدى علم رجال الإدارة والأمن بهذه الزيارات التى يقوم بها "جنابه" عادة بطريقة مفاجئة حتى يرى الأمور على طبيعتها دون تجميل، فالرجل يريد الاطمئنان على أن أموال المعونة الأمريكية التى هى من مصلحة الضرائب التى يدفعها المواطن الأمريكى تصرف موضعها !!

والغريب أن الصحفى الذى صاغ ذلك الخبر الاستنكارى لم يحاول أن يطرح سؤالا بريئا حول مايفعله السفير الأمريكى فى إسرائيل التى تتلقى أكبر قدر من المعونة العسكرية والمدنية الأمريكية حتى قدر النصيب الشهرى للمواطن الإسرائيلى من المعونة الأمريكية ينحو ألف وخمسمائة دولار شهريا، ترى هل يستطيع السفير الأمريكى فى إسرائيل أن يقوم بجولات تفتيشية للاطمئنان على حسن استخدام المعونة الضخمة التى تقدمها بلاده لإسرائيل ؟! وهل تسمح الحكومة الإسرائيلية له بذلك دون استئذان ؟! هذه التساؤلات وغيرها تساؤلات استنكارية مشروعة، كان باستطاعة من صاغ الخبر أن يطرحها دون أن يورط نفسه فى"شبهة" الإعتراض على جولات "جناب المندوب السامى".

والأعجب من ذلك المقال الذى دبجه أحد أصحاب الأعمدة بجريدة يومية مستقلة تحدث فيه عن نشاط وخفة دم السفير فرانسيس ريشاردونى، وأشار إلى جولاته الميمونة فى طول البلاد وعرضها بتواضع جم دون المبالغة فى الحراسة أو الإعتداد بالرسميات، والبساطة التى يتعامل بها مع الناس وحرصه على التواصل معهم بلغتهم، وعشقه للأكلات المصرية حتى أنه زبون دائم بمطعم نجيب محفوظ بخان الخليلى، ومن رواد قهوة الفيشاوى، ثم ينعى الكاتب على المسئولين المصريين عدم الاقتداء بجناب السفير عندما يزورون الأقاليم حيث تعطل إجراءات الأمن المبالغ فيها أحوال البلاد والعباد.

وهكذا أصبح "جناب الندوب السامى" مثلا أعلى يجب أن يحتذى، دون مناقشة مشروعية أو عدم مشروعية جولاته، أو إدراك مالها من مساس بالسيادة الوطنية، وما يمثله موقف النظام السلبى منها من تفريط بين فى أبسط متطلبات الأمن القومى.

عدت بالذاكرة إلى مقال لخطيب الثورة الوطنية عام 1881- 1882 الصحفى الثائر العظيم عبد الله النديم، كتبه فى مجلة "الأستاذ" التى كان يحررها منذ 115 عاما بعنوان "سهرة الأنطاع" تناول فيه أحاديث بعض المثقفين ومواقفهم السلبية من سياسة الاحتلال البريطانى فى مصر وإعتبر ذلك نوعا من النطاعة، فهل لنا أن نستخدم هذا المصطلح فنعتبر هذا الموقف السلبى من جولات "جناب المندوب السامى" من ضروب النطاعة ؟!

إن الطريقة التى يتصرف بها فرانسيس ريتشاردونى يجب أن تثير غيرة كل وطنى حريص على مابقى من السيادة الوطنية، وأن تعبر الأقلام الوطنية الحرة عن إستنكارها هذا التفريط البين فى حقوق الوطن، وأن تعبر الحركة السياسية المصرية عن إحتجاجها ورفضها لتقاعس النظام عن حماية الأمن القومى المصرى، والعمل على مقاطعة جولات جناب المندوب السامى، وفضح أولئك الذين تجمعهم إعتمادات "كسب القلوب والعقول" التى تستهدف تحسين صورة أمريكا فى الشرق الأوسط، والتى تملك مفاتحيها السفارات الأمريكية بالإقليم ولعل ذلك يفسر إحتلال أخبار فرانسيس ريتشاردونى صفحات الصحف اليومية باعتباره "سلطة " موازاية للنظام الحالى بفضل خطة "حشو الجيوب وتضليل العقول". لعن الله النطاعة والأنطاع، وتجار وسماسرة الحقوق الوطنية.